المنهج النقدي عند الأطباء المسلمين

د/ زكية بالناصر القعود*

أن الحضارة الإنسانية ما هي إلا مزيج بين حضارات العالم ، فالحضارة اليونانية مثلا ما هي إلا خليط من حضارات الشرق القديمة ، تبلورت وظهرت في صورة الحضارة اليونانية اللاتينية ، و كذلك الحضارة الإسلامية كانت وسيطاً بين هذه الحضارات، حيث أقبل العلماء المسلمون على ترجمة التراث القديم ، و عملوا على دراسته وتمحيص الحقائق ونقدها ،لتحري الصواب واتبعوا في ذلك منهجاً علميا منظماً ، توصلوا به إلى الكثير من الحقائق العلمية الجديدة ، وهم بذلك سبقوا علماء الغرب في اتباع المنهج العلمي ، خلاف ما ادّعاه المغرضون والناقمون على الإسلام بقولهم إن علماء المسلمين لم يكونوا مبدعين بل مجرد نقلة نقلوا العلوم القديمة ولم يضيفوا إليها شيئاً له أثر يذكر على سير المدنية

ولعل هذا لاعتقاد نشأ نتيجة لإهمال أصحاب التراث الإسلامي لتراثهم ، ونتيجة لتحامل عدد من علماء الغرب على هذا التراث وانتقاصهم قدره بقصد تشويه صفحات لامعة من التاريخ الإسلامي والإنساني لمآرب غير خافية على أحد.

على أن من ينظر بعين العدالة إلى التراث الإسلامي العلمي سيجد أن المسلمين قد ضربوا بسهم وافر في مختلف العلوم ،وأنهم لم يكونوا مجرد نقلة ، بل إنهم تصدوا للعلوم القديمة بالدراسة والنقد لتحري الصواب واتبعوا في ذلك منهجاً علمياً منظما أتاح لهم الوصول إلى العديد من الحقائق العلمية الجديدة و إلى نظريات وأفكار كان لهم فيها السبق وهذا بفضل استخدامهم المنهج العلمي الذي اتبعوه قبل الغرب بقرون.

إن المنهج العلميّ هو الفكرة الرّئيسية التي تميز أي علم من العلوم الطبيعّية ، والعالم الذي يعمل من غير منهج لن يصل لاكتشاف علميّ، ولن تتاح له الفرصة لإضافة إسهامات علمية جديدة للبشرية ، ومن ثم يصبح ناقلا مرددا لأفكار الآخرين.(1). ويقال إن المهم في العلم صحة المنهج ، لا النتائج ومن المعروف أن النتائج العلمية قد تكون في وقت ما احتمالية إلى أن يثبت خطؤها، فتجازوها العلماء إلى غيرها.(2)

* جامعة بنغازي/ قسم التاريخ الإسلامي - دكتوراه في تاريخ العلوم - البريد الإلكتروني hist212@yahoo.com

والعلماء والأطباء المسلمون كانوا يدركون جيدا أهمية أن تأتي أفكارهم نتيجة المنهج العلمي الذي اتبعوه في البحث والقواعد المتحدة التي التزموا بها ، ولذا وجدناهم يجمعون بين الحس والعقل ويناقشون عقليا ومنطقيا ما يعرضه الحسّ في ضوء مؤلفاتهم . (3) وقد أدى هذا إلى تقدم علم الطب عند المسلمين وفي هذا الصدد يقول " داود الأنطاكي " ليس هناك علم من العلوم يستغنى عن علم الطب أصلا ، لأن اكتساب العلوم لا يتم إلا بسلامة البدن والحواس والعقل " (4).

وهذا الرأي إن دل عل شيء، فإنما يدل على أن أطباء المسلمين ، كانوا واثقين بعلمهم ثقة لا حدّ لها مدركين أهميته في حياة الإنسان وهذه الثقة ترجع إلى المنهج العلمي الذي اتبعوه.

من هنا نرى أن المنهج العلمي يعني الأسلوب أو الطريق لتقصي الحقائق، وهو في حد ذاته فن التنظيم الدقيق والسليم للأفكار الذهنية المتعددة للعقل لبشري من أجل كشف الحقائق المجهولة أو برهنتها أو إثبات ، صحتها. ومن هذه المناهج العلمية التي اتبعها الأطباء المسلمون المنهج النقدي.

فالمنهج النقدي لا يعدو أن يكون أحد المناهج العلمية التي يمكن أن تدرس بها الحقائق العلمية، فهو يعتمد إلى حد كبير على التدليل المنطقي والتفكير العقلي، وهذا يتطلب من الباحث سعة الاطلاع وقوة إدراك وفطنة وقدرة على التحليل والتدليل والنظرة الموضوعية مع الاعتماد على الملاحظة والتجربة اللتان تعتبران مصدر الخبرة التي يعتمد عليها النقد.(5)

إذ إن التجربة تمكّن الباحث من نقد معلومات وأفكار ونظريات من سبقوه ومن إدراك ما في تراث من قبلهم من نقص وتناقص.(6)

وقد ظهرت روح النقد عند المسلمين منذُ العصور الأولى من تاريخهم، ولتنظيم العمل بهذا المنهج وصفوا له مبادئ للسير عليها منها:-

1- احترام السلف على الرغم من وقوع البعض منهم في زلات وهفوات .

2- لا يمنع الاستدراك على الأسلاف بشرط ألا ينطوي ذلك الاستدراك على الإسراف في التجريح والتضليل. (7) .

لأن الإسراف في الشك والنقد والاستهتار بكل ما يقال، معيب كل العيب و يعد ميعاً فكريا وتحللا نفسيا ومن أكثر الأمور خطورة على الفكر(8).

وهذه المبادئ جعلت المنهج النقدي عنده العلماء المسلمين مبنيا على قيم أخلاقية جعلته مفيدا ومثمرا، غير أن كثيراً من الباحثين قد غفل عن هذه الحقيقة ، مما أدى إلى سوء فهمه ، الأمر الذي جعلهم يتهمون علماء المسلمين بضعف الروح الانتقادية ووصفهم بالتبعية للقدماء (9).

ومن أنواع النقد عند علماء المسلمين النقد الحدسي:- وهو اصلاح الخطأ في النص عن قصد وتعمد أي نتيجة بحث وتفكير في سلامة النص ، و كانوا مع هذا شديدي الحرص ألا يمسوا نص النسخة الخطية بالإصلاح والتعديل لأنهم كانوا يدركون جيدا أن الإقدام على عمل كهذا (النقد الحدسي) يؤدي إلى كثير من المزالق التي لا يمكن تفاديها(10).

ويعتبر "الخوارزمي "و"الصابي" أول من تناول هذا المنهج ، فلم يكن الهدف منه النقد اللغوي الصرف الذي يعني بإصلاح كلمة بكلمة أخرى ، ولكنهما كانا يرميان إلى ما هو أبعد من ذلك فهما لا يعنيان بقضية استنباط النص الأصل كما وضعه المؤلف بل بتحسين المعني الذي قصده (11)

ومثالا على **هذا النوع** من النقد الذي يتطلب الإدراك والتحري وعمق التفكير نجد مقالاً **لابن سينا** عن النقد الحدسي أشار إليه **فخر الدين الرازي في كتاب الإشارات لابن سينا** بقوله " إن **ابن سينا** يرفض النظرية التي تقول بأن الأجسام تتركب من عدد محدود أو غير محدود من الذرات ، وفي بحثه النظرية الثابتة "يذكر أنها " عدد غير محدود، حيث يفترض وجود كثرة من الآحاد التي يفوق حجمها الوحدة الأساسية، ويفترض كذلك وإمكانية الإضافة بينها في جميع الجهات ". و **فخر الدين الرازي** يرجع الضمير(ها) في لفظة بينها " إلى الكثرة " ويقترح أن نقرأ النص هكذا " وإمكانية الإضافة بين تلك الكثرة وبين غيرها في جميع الجهات "ويفسر إصلاح القراءة بقوله : إن اقتراحه هذه القراءة ليس مبنيا على مقابلة بالنسخ الأخرى ، ولكنه يظن أن إسقاط الكلمات التي أضافها ناجم عن خطأ عن النسخ ارتكبه إما ابن سينا نفسه أو ناسخ ما غيره أو أن ابن سينا أسقطها عمدا .،لأن القرينة تدل عليها "(12).

أما النوع الثاني من النقد فهو النقد الموضوعي ، و يتم نقد المعلومة العلمية من قبل الباحث نقدا معتمدا على الخبرة والتجربة والمشاهدة القياس والاستقراء ، وكان من وراد هذا المنهج العلمي **الرازي وابن النفيس وابن الهيثم وجابر بن حيان** وغيرهم كثير ممن حددوا خطوات هذا المنهج ومراحله، وهذا النوع من النقد هو الذي نحن في صدد الحديث عنه ، فقد استخدامه الأطباء المسلمون بوصفه منهجاً لنقد ما يصل إليهم من معلومات طبية سواء من التراث اليوناني أو من سبقهم من أطباء ، لتطوير علم الطب للتأكد من المعلومات التي بين أيديهم .

وعلماء المسلمين يرون أن السير في هذا المنهج ضروري ، فهذا **أبو هاشم البصري** يقول : " الشك ضروري لكل معرفة " (13) وقال الجاحظ فيه أيضا " تعلم الشك ، في المشكوك فيه تعلما فلو لم يكن إلا تعرف التوقف ثم التثبيت لقد كان ذلك مما يحتاج إليه " (14) .ويقول ابن سينا الشك وسيلة لا غاية ،طريق إلى اليقين ، فهو في هذه الحدود ضرورة لازمة وفضيلة إنسانية محتمة (15) ويقول أيضا الشك في الحياة الفكرية له خطره الذي يسمو بالمجتمع إلى مراتب النضج الفكري والكمال الإنساني ، إذا التزم حدود الاتزان ولم يركب متن الشطط (16). وهذا ابن حزم قد رسم نظرية المعرفة عنده على أسس ثلاثة:-

1- شهادة الحواس (أي الاختيار).

2- بأول العقل (أي بالضرورة وبالعقل من غير حاجة استعمال الحواس الخمس.

3- ببرهان راجع من قربه أو من بعده إلى شهادة الحواس وأول العقل(17).

وبناء على ما سبق فقد كان العلماء المسلمون سباقين في اتباع هذا المنهج ، وهذا يدحض الافتراء الغربي الذي ينسب إلى علماء الغرب وخاصة فرنسيس بيكون وضع هذا المنهج ، يقول فرسيس بيكون : " إن الذين يبدؤون باليقين لا يصلون إلى الحقيقة أبدا والذين يبدؤون بالشك يصلون إلى اليقين دائما " 18).

وهناك الكثير من الدلالات التي تؤكد على استخدام علماء المسلمين للمنهج النقدي في مقدمات مؤلفاتهم فهذا البيروني يقول : " إنما فعلت ما هو واجب على كل إنسان أن يعمله في صناعته من تقبل اجتهاد من تقدمه بالمهنة ، وتصحيح خلل إن عثر بلا حشمة . . . وتخليد ما يلوح له فيها تذكر لمن تأخر عنه بالزمان وأتى بعده(19).

ويقول العالم الكبير **الحسن بن الهيثم** في هذا الغرض" ونجعل غرضنا في جميع ما نقرؤه ونتصفحه استعمال العدل لا اتّباع الهوى ونتحرى سائر ما نميزه وننتقده طلبا للحق لا لميل مع الآراء . .(20).

ومن أقواله أيضاً بخصوص ضرورة التجرد للنظر في العلوم والحقائق نظرة متحفظة شاملة ومحايدة ما نصه " الحق صعب لذاته وكل مطلوب لذاته فليس يعني طالبه غير وجوده ، وجود الحق صعب والطريق إلية وعر، والحقائق منغمسة في الشبهات مُحسن الظن بالعلماء في طباع جميع الناس ، فالناظر في كتب العلماء إذا استرسل مع طبعه وجعل غرضه فهم ما ذكروه وغاية ما

أوردوه حصلت الحقائق عنده هي المعاني التي قصدوها والغايات التي أشاروا إليها وما عصم الله العلماء من الزلل ولا حمى علمهم من التقصير والخلل ولو كان ذلك لما اختلف العلماء في شيء من العلوم ولا تفرقت آراؤهم في شيء من حقائق الأمور .، لوجود بخلاف ذلك ، فطالب الحق ليس هو الناظر في كتب المتقدمين المسترسل مع طبعه في حسن الظن بهم ، بل طالب الحق هو المتهم وظنه فيهم المتوقف فيما يفهمه عنهم ، المتبع الحجة والبرهان لا قول القائل الذي هو الإنسان المخصوص في جبلتة الخلل والنقصان (21)

أما عالمنا أبو بكر الرازي فيقول بخصوص تقصي الحقائق " فإذا اجتهد أي - العالم - وشغل نفسه بالنظر والبحث فقد أخذ في طريق الحق فالمجتهد بحق مشكور حتى ولو لم يبلغ الغاية " (22).ويقول أيضا " ولا نحل شيئا من ذلك عندنا محل الثقة إلا بعد الامتحان والتجربة (23) . ويقول ابن النفيس في مقدمة كتاب شرح تقدمة المعرفة "لبقراط" رأينا أن نسلك طريقنا في اتباع الحق ونصرته ،واجتناب الباطل وملاحظته " (24)

تميز نقد **العالم ابن النفيس** بالجرأة والتحدي والثقة بالنفس فنراه يقول في مقدمة شرح كليات القانون " وأن نوضّح كل مطلب الحق ونبيّن كل مذهب لا الرث الشاذ ونرتب المباحث ونتكلم عليها بحسب النظر المحقق ثم ننصر الحق ونعليه ونتحدى الباطل ونخفي آثاره(25) و يقول في مقدمة كتاب شرح الفصول لبقراط " وأمّا نصرة وإعلاؤنا له وخذلان الباطل وطمس أثاره ، فأمر لازم في كل فن (26)

لقد كانت الغاية من إبراز هذه الفقرات توضيح بيان أن ما حصل عليه أجدادنا من رفيع العلوم كان نتيجة تمحيص ونقد وتحليل لما وصلهم من مادة ولم يكونوا مقلدين لآراء الآخرين ، كما يتوهم عديد من الكتاب وخاصة الغربيون منهم وذلك ليبعدوا الأصالة والإبداع عن فكرنا العربي.

وفي الوقت الذي ينكر فيه كثير من المؤرخين وعلماء الغرب بأن العلماء المسلمين لم يستخدموا المنهج النقدي ، هناك من اعترف بأن العلماء المسلمين لم يأخذوا آراء وأبحاث من سبقهم مهما كانت مكانتهم العلمية دون نقد أو تفكير ، فيقول جاك . س . ريسل . عن الأطباء العرب في كتابه " الحضارة العربية " " قد جمعوا دون كلل - وهم ناقدون مدققون غاية التدقيق ومتأنون وذوو رأى صلب ، ومن الآن فصاعدا أصبح الطب تجريبيا(27) ويقول أحد المستشرقين الفرنسيين " إن الحركة العلمية عند الغرب تتميز بالانتقال من المعلوم إلى المجهول والتحقيق الدقيق في ظواهر ورفض كل حقيقة لم تثبت عن طريق

الملاحظة الحسية " (28) . ويقول كذلك روزنتال dR.f. ANZ ROSENTHAL " كثيرا ما كان الأطباء المسلمون يرفضون الأخذ بنظريات إبقراط وجالينوس الطبية الخطأ يجدونه فيها إما بناء على اختباراتهم الشخصية أو بناء على تفكيرهم المنطقي " (29) ويقول أيضا البروفسور فارمر fARMER إن علماء العرب لم يأخذوا بآراء الذين سبقوهم حتى ولو كان نجم السابقين مضيئا وعاليا إلا بعد أن يتأكدوا ويتثبتوا منها عمليا " (30).

ويتجلى هذا المنهج بوضوح في الكم الهائل من الشروح والتعليقات التي قام بها الأطباء على المؤلفات الطبية السابقة التي تتمثل في :-

1- نقد التراث اليوناني الذي نقلوا منه الكثير ,

2- نقد مؤلفات الأطباء المسلمين .

وفي هذا الموضوع سنعرض بعض من نماذج نقدهم لذلك .

أولا: نقد التراث اليوناني :

لا يعني مفهوم الشرح عند أطباء المسلمين مجرد إعادة القديم فحسب ، وإنما مراجعة وتنقيح مسائله وتصحيح أغلاطه، ونقد محتواه ، لكن يمكننا القول بأن الشرح في هذه المرحلة كان يعني", إعادة النص للحياة "(31).

بهذا المفهوم السابق لكلمة شرح قام العديد من الأطباء ومنهم " **ابن النفيس والبغدادي والرازي والزهراوي** وغيرهم بشرح أعمال أبقراط جالينوس، ولقد تجلت هذه النزعة النقدية في أعمال البغدادي وابن النفيس خاصة. ومن البراهين على نقد الأطباء المسلمين للتراث اليوناني نقد الرازي:" مما انتقد فيه أبقراط قوله : " إذا عرض للمستسقيّ سعال بلا سبب موجب للسعال ، كالنزل وغيره ، ولكن من نفس علته لغلبة الماء وكثرته، فإنه هالك ، وذلك أنه يدل على أن الماء قد بلغ إلى قصبة الرئة وأشرف على الاختناق " والرازي يقول في ذلك :" هذا قول سمج وذلك أن الماء تحت الحجاب ، فكيف يبلغ قصبة الرئة ؟ ولكن الأولى في ذلك أن كثرة الماء لما يزحم الحجاب جدا ، فيضيق لذلك النفس ويهيج السعال " (32) والرازي محق في اعتراضه . ومما خالف فيه أيضا قوله: " البول يزداد في الشتاء زيادة كثيرة والرسوب يكون فيه أكثر " ويقول الرازي في ذلك : أما كثرة كميته عندي فلقلة العرق ، وأما الرسوب ، فيقول لم أر قط هذا الرسوب في بول البائلين وهو خطأ لا يكون"(33) .

ونقد بغدادي ": لو نظرنا إلى المقدمة المنهجية ، التي وضعها البغدادي ، في بداية شرحه لكتاب تقدم المعرفة ، نجده يعتبر عملية الشرح ، هي وضع كتاب علمي على جهة معدلة ،

نجده يقول: ,,.. إن كل واضع كتاب علمي على جهته المعدلة فقصده تسهيله على المتعلم بثلاثة وجوه هي :

1.أن يجتنب اللفظ الوحشيّ والملبس والمغلظ ويجتهد أن يصور المعني في نفس المتعلّم بغاية الإمكان.

2. أن يثبت الرأي بالحجج المكنة والأدلة الواضحة .

3. أن يرتب الموضوع ترتيباً يسهل حفظة ولا يصعب ضبطه.(34)

بهذا نرى أن البغدادي لا يقدم صياغة نظرية فحسب وإنما يحدد طريقا عمليا قام به بالفعل في شرحه فنراه يحرص كل الحرص على تقديم آراء السابقين ، ورأى العلماء فيها وتحليلها ونقدها وتصحيح ما بها من أغلاط وقد تجلت هذه النزعة في أعماله بشكل بارز أثناء حديثه عن آثار مصر واعتقاد العوام والمعاصرين له في ضخامة أجسام الفراعنة ، حيث ينتقد هذه الفكرة العامية برجوعه إلى المومياوات الفرعونية ،ثم يقدم تعليلا لاعتقاد العوام فيقول: وإذا رأى العاقل هذه الآثار يقصد التماثيل الضخمة للفراعنة ، عذر العوام في اعتقادهم عن الأوائل بأن أعمارهم ، كانت طويلة وأجسامهم عظيمة ، وكانت لهم عصا إذا ضربوا بها الحجر سعى بين أيديهم ،،(35).

أما فيما يخص الطب و التشريح ، فينقد "عبد اللطيف البغدادي" ، ما ذهب إليه " جالينوس" في وصف بعض أجزاء الهيكل العظمي . حيث أكد على سبيل المثال أن الفك الأسفل قطعة واحدة ، وليس قطعتين كما يقول جالينوس ، ذلك بعد أن فحص أكثر من ألفي جمجمة بشرية في أحد المقابر قائلا :" .. فشاهدنا من شكل العظام ومفاصلها وكيفية اتصالها وتناسبها وأوضاعها ما أفادنا علما لا نستفيد من الكتب ... . فإن جالينوس وإن كان في الدرجة العليا من التحري والتحفظ فيما يباشره ويحكيه ، فإن الحسّ أصدق منه ، ثم يقول إن عظم الفك الأسفل ، فإن الكل طفقوا على أنه عظمان بمفصل وثيق عند الحنك ، وقولنا الكل نعني به هاهنا " جالينوس وحده فإنه هو الذي باشر التشريح بنفسه... وصنف فيه عدة كتب معظمها موجود لدينا ، والذي شاهدنا من حال هذا العضو أنه عظم واحد وليس فيه مفصل ولا درز أصلا ، واعتبرناه ما شاء الله من المرات في أشخاص كثيرة تزيد على ألفي جمجمة بأصناف من الاعتبارات ، فلم نجده إلا عظما واحدا ، من كل وجه ثم استعنا بجماعة متفرقة ، اعتبروه بحضرتنا وفي غيبنا

فلم يزيدوا على ما شاهدناه منه وحكيناه ، وكذلك في أشياء أخرى غير هذه ثم إني اعتبرت هذا العظم أيضا بمدافن بوصير القديمة فوجدته على ما حكيت ليس فيه مفصل ولا درز ومن شأن الدروز الخفية والمفاصل الوثيقة إذا تقادم عليها الزمان أن تظهر وتتفرق وهذا الفك لا يوجد في جميع أحواله إلا قطعة واحدة وأما العجز مع العجب ذكر جالينوس أنه مؤلف من ستة أعظم ، وكذلك وجدته في سائر الجثث على ما قال إلا في جثتين فقط فإني وجدته فيهما عظماً واحداً وهو في الجميع موثق المفاصل ولست واثقا بذلك ، كما أنا واثق باتحاد عظم الفك الأسفل "(36) . وهذا البغدادي يعلن بكل ثقة أن جالينوس على خطأ في قوله " إن الفك الأسفل يتكون من عظمتين وما كانت هذه الثقة والاختلاف في الرأي لو لم يتبع منهج النقد والتمحيص في آراء من سبقه لمعرفة الحق والباطل منه و ما توصل إلى هذه الحقيقة .

النقد عند ابن النفيس:- ظهرت في مؤلفات " ابن النفيس " هذه النزعة النقدية التي ، تظهر مثلا في نظريته عن كيفية الإبصار ،وهي النظرية التي يعرضها في بداية كتابة " المهذب في الكحل المجرب " على النحو التالي :-

يعرض أولا لآراء السابقين في كيفية الإبصار فيقدم فصلا تحت عنوان " في مذاهب العلماء في الرؤية " يستعرض آراءهم فيقول:-

الرأي لأول :- رأي الرياضيين ، وأكثر الأطباء ،وهو أنه يكون بشعاع يخرج من العين ويلاقي البصر .

الرأي الثاني :- رأي أكثر الطبيعيّين ، وهو أنه يكون بوصول شبح مرئي إلى العين (38).

ثم يقدم حججهم على رأيهم في فصل بعنوان " في ذكر حجج القائلين بهذه الآراء" ، ثم ينتقد آراءهم في فصل آخر بعنوان " في إبطال آراء المخالفين ودحض حججهم ونصره الحق الذي هو مذهبنا واعتمادنا عليه ، فيقول : " ابن النفيس " أما حجة أصحاب الشعاع فبطلانها من وجوه ، الأولى: فإن رؤية البعيد إنما تتم بزيادة تحديق بلطف الروح ، لا لطول مسافة سَفَره ، أما الثانية : "فإن المحسوس البصري يحوز أن لا تشترط فيه الملاقاة .. أما بطلان قول من قال إن الرؤية تتم بوقوع شبح مرئي على الرطوبة الجليدية أو على سطح الطبقة العنكبوتية ، فذلك لأن الرطوبة الجليدية والطبقة العنكبوتية مستويتان بالجسم الأسود ، الذي نشاهد في الحدقة ، وذلك الجسم مانع من وصول الشبح إلى هاتين (38).

بعد أن ينتهي " **ابن النفيس** " من نقد آراء السابقين يعرض ما يؤكد نظريته ، التي تتلخص في أن الإبصار" إنما يتم بردود شبح مرئي إلى الحاسة ، وذلك أن يكون بسبب وقوعه على الرطوبة الجليدية ، أو على الطبقة الشبكية ، أو على الطبقة العنكبوتية ،أو على الروح الذي في العين ، والقسمان الأولان قد أبطلناهما فبقي أن يكون ذلك بوقوع الشبح على الروح ، ثم الروح تؤديه إلى إمام الحاسة فتدركه ، وذلك هو ما ذهبنا إليه (39)

وقد اتخذ " **ابن النفيس** " موقفا صارما من " **جالينوس** " ، فهو ينتقده في مسألة تشريح الأسنان فيقول ,,وقد شنع " **جالينوس** " على ما يجعلها عظاما وجعلهم سوفسطائية ، واستدل هو على أنها عظام بما هو عين السفسطة ، وذلك لأنه قال :,,إنها لم تكن عظاما لكانت عروقا أو شرايين أو لحما أو عصبا ونحو ذلك . ومعلوم أنها ليست كذلك ، وهذا غير لازم ، فإن القائلين بأنها ليست بعظام يجعلونها من الأعضاء المؤلفة لا من هذه المفردة ،ويستدلون على تركيبها بما يشاهد فيها من الشظايا وذلك رباطيه و عصبية قالوا : وهذا يوجد في أسنان الحيوانات الكبار ظاهرا" (40).

وإذا عدنا إلى كتاب " **اندريا فيزاليوس** " (1514/ 1564م) ، الذي يعتبره الغرب مؤسس علم التشريح ، نجده يقع في الخطأ نفسه ، كذلك " **ليو ناردوا دافتشي** (1452/ 1519م) في رسومه التشريحية الشهيرة (41) . لقد كرروا جميعا خطأ " جالينوس ..ماعدا " ابن النفيس " الذي انتقد جالينوس في قوله " بأن ,,المرارة ينفذ منها إلى الأمعاء مجرى آخر تنفذ منه الصفراء إلى تجاويف الأمعاء ،وهذا لا محالة باطل ، فإن المرارة شاهدناها مرارا ، ولم نجد فيها ما ينفذ لا إلى المعدة ولا إلى الأمعاء .(42)

وهكذا صحّح " ابن النفيس " خطأ " جالينوس " قبل المشرحين الغربيين بعدة قرون ، فهو يقول إنه شاهد المرارة مرارا ، معنى ذلك أنه شاهدها عيانا وعلى الإنسان ، لأن جالينوس يقول :,, إ نك ,سترى في بعض الحيوان،،. لذلك أخطأ ولكن " ابن النفيس " شرَّح الإنسان فاستدرك الخطأ (43)

وينتقد أيضا" جالينوس " في تشريحه الأفنية الصفراوية ... سترى " عند التسليخ " القناة التي تجري من حويصله الصفراء إلى بداية أمعاء الاثني عشر تحت البواب بقليل ، وسترى في بعض الحيوان النقطة التي تنضم فيها نهاية المعي الدقيق حول البواب ..وفي الوقت نفسه سترى قناة صغيرة تذهب أسفل الوريد الذاهب إلى الإثنى عشر يتجه إلى الأسفل (44)

ويـذكر " ابـن سـينا " الخطـأ نفسـه فيقـول ,,وهـذا المجـرى ... أي القنـاة الصـفراوية ، تتصل أكثر شعبة بـالإثنى عشر، وربمـا اتصل شـيء صـغير منـه بأسفل المعدة ، وربمـا وقـع الأمـر بالضد فصار الأكبر المتصل بالوعاء الأغلظ إلى أسفل المعدة والأصغر إلى الإنثى عشر(45)

وهذا ابـن النفيس العـالم الثـائر علـى مـن سـبقه مـن أطبـاء وعلمـاء فـي كثيـر مـن النصـوص التي يتضح منها اتباعه المنهج العلمي الذي بُني على قواعد يسير عليها أو صلته إلـى اكتشـاف عديد مـن الحقـائق العلميـة التـي لا مجـال لـذكرها واكتفينـا بالإشـارة إلـى بعضـها منهـا مـن خـلال اتباعـه هذا المنهج لاكتشاف هذه الحقائق .

وقد نال " جالينوس "أكبر قدر من النقد .، نظرا لأن مؤلفاته تشتمل علـى التفصـيلات العلميـة أكثر من أعمال " ابقراط " التي اعتمدت على الإيجاز والإجمال (46.

ثانيا نقد السابقين من الأطباء المسلمين :-

لم يقتصـر نقد أطبـاء هذه المرحلـة علـى معـاودة النظر فـي التـراث الطبـي اليونـاني فحسـب، بل نال الطب العربي السابق قسطا من هذه النزعـة النقديـة حيث نجد العديد من النصـوص الخاصـة بنقد هؤلاء السابقين . فمن ذلك مـا نجده عند " ابن رشد " حين يقول : ,, ومما غلطوا فيه –يقصد الأطباء المسلمين السابقين له- حكمهم على أمزجة الأبدان من الفصول المندفعة منها وهذا ليس يصح فيـه حكـم كلـيّ ... وذلـك أنهـم ظنـوا أن الفضـلّ هـو شـبيه بالشـيء الـذي هـو فضـل لـه وآخر أن يكون غير شبيه من أن يكون شبيها ... لا ينبغي أن نتوهم أنـه حتـى كـان البدن يابسا وجب أن يكون فضلته يابسة ، ولا متى كان رطبا أن تكون فضلته رطباً (47)

وفي عبارة نقدية أخرى يقول " ابن مطران " عن " السبل "(48)مـا يلـي : ,,..هو فـي العين منزلته اتساع العروق في الرجلين المسمى الدوالي ليس مما يقوله : كثير من جهال الأطباء إنه غشاوة تسبح على الملتحمة خارجة عن عروقها ،وهو مرض من نوع الاتساع .،،(49)

كما ينتقد " ابن زهر " سهو الأطباء السابقين له ، فيقول: فـي " التذكرة " ,, وإن الأطبـاء لـم يجعلوا للأدوية المسهلة درجات فـي قوى الإسـهال فـإن مـن الجـزم مـن الطبيـب أن يضـع لهـا درجـات في نفسه ليرتبط له ما يحتاج إليه (51)

كما ظهرت النزعة النقدية عند " ابن زهر " الحفيد في كتابه " التيسير " بعد أن يـذكر عـلاج الوبـاء الهوائي فيقول : ,,وقد أثبت في عـلاج الوبـاء الهـوائي بمـا وجـب علينـا بحسـب مـا أجمعنـا عليـه

في كتابنا هذا مما ذكر المتقدمون ..وأما أنا فإني أرى فيه استعمال .. ..إلخ ،،(52) . ويذكر أدوية جديدة ونظاما خاصا في شرب المياه وتناول الأغذية يصحح به ما ذهب إليه الأطباء السابقون فيما قالوه بصدد علاج هذا الوباء .

وفي أحد فصول كتاب " موسى بن ميمون توفي (605هـ)" قوانين الجزء العلمي من صناع الطب " قوله : ,,..إذا حدث حمى ينبغي أن يتفقد أمرها فإن كانت حمى يوم ينبغي أن يدخل صاحبها الحمام وقت انحطاط الحمى هذا رأى جميع الأطباء، وأما أنا فأحذر من إدخالهم الحمام ....،،إلخ (52).

وفي كتاب "المهذب " نجد هذه النزعة النقدية من خلال استعراض آراء الآخرين والرد عليها فمن أمثلة ذلك قوله : ,,أما الاسترخاء فقد قالوا إن عضلة استرخت عرض عن ذلك ميل السواد إلى الجهة المقابلة لجهتها ، وهذا عندي إنما يصح إذا كان الاسترخاء في العضلة المحركة للمقلة إلى فوق ، فإن هذه إذا استرخت مالت المقلة بثقلها إلى أسفل ، وما كذلك باقي العضلات فإن قيل: إن المقلة تتحرك حينئذ لتحريك العضلة المقابلة ، لأنها حينئذ تكون سالمة عن معارضة فعل المسترخية ، فيقول : إن هذا مما لا يصح ، وذلك لان تحريك العضلة المقابلة ، إنما تكون بالإرادة وعند فعلها ذلك لا يقال إن ميل السواد حول لأنه لا يخالف الحال الصحيحة ، إذا العضلة الصحيحة ليست تمانع المقابلة لها عند إرادة الحركة إلى جهتين بل تكون حينئذ هي المسترخية سواء ،، (53).

ولم يسلم من النقد كبار الأطباء السابقين حتى " ابن سينا " فقد انتقده " ابن النفيس " في قوله ,,أن القلب له ثلاث بطون ،، معتمداً في هذا الرأي على المشاهدة في قوله: ,, وأما منافع كل واحد من الأعضاء ، فإنا نعتمد على تعريفها على ما يقتضيه النظر المحق ، والبحث المستقيم ، ولا علينا إن وافق ذلك رأى من تقدمنا أو خالفه ... ،، ويقول في مجال آخر منتقداً بعض الآراء مثلا التشريح يكذب ما قالوه(54) .

ولم يقتصر عملية نقد السابقين على الطب بمعناه الضيق ،إنما ظهر أيضا في علم قريب من الطب وربما يعد تخصصاً من التخصصات ،وهو الصيدلة .،وهنا العديد من الشواهد التي تدل على النزوع إلى النقد في هذا النوع من الكتابات والبحوث الخاصة بهذه المرحلة فمن ذلك ، ما نجده عند " ابن البيطار " الذي قام بنقد كتاب"‘‘–مناهج البيان فيما يستعمله الإنسان " ، وهو الكتاب الذي جمع فيه " ابن جزلة " توفي(493هـ) الأدوية والأغذية الأشربة ، فنبه **ابن البيطار** " على أخطائه وما غلط فيه من أسماء الأدوية ،وذلك في كتابه الذي رتبه

على حروف المعجم وجعله بعنوان " الإبانة والأعلام بما في المنهاج من الخلل والأوهام "، حيث يقول في مقدمته ,,أما بعد فإنه ما أشار على من خلصت بإرادة الخير لي نيته ندبني إلى ما رجوت ...أن أتعرض لبعض الكتب الموضوعة في الحشاش والأدوية المفردة .. فأستطيع بوسائط أدويته أن أتعقب ما جرى فيها من التباس أو غلط وأعلم بما وقع فيها من الأوهام في الأسماء والمنافع ..فوضعت في ذلك مقالة ..تشمل معناها على وفاء المقصود ..معتمدا على يقين صحيح أو تجربة مشهودة أو علم متحقق.،،(55)

كما أبرز " ابن البيطار " في مقدمة كتابه منحاه التجريبي ، فقال: في الغرض الثاني صحة النقل فيما أذكر عن الأقدمين وأحَرّره عن المتأخرين ، فما صح عندي بالمشاهدة والنظر وثبت لدى بالخُبر لا الخَيَرِ ادخرتُه كنزاً سرياً وعدتُ نفسي عن الاستعانة بغيري فيه سوى الله غنيًّا ، وما كان مُخالفا في القُوى والكيفيّة والمشاهدة الحسيّة في المنفعة والماهية للصواب والتحقيق أو أن ناقله أو قائله ، عدل فيه سواء الطريق فنبذته ظهريّا وهجرته مليا وقلت لناقله لقد جئت شيئا فريا ، ولم أحاب في ذلك قديما لسبقه ولا محدثا اعتمد غيري على صدقه ،،.(56) قد انتقد بفعل أطباء كثيرين قد أخطأوا في الحديث عن خصائص الأدوية العلاجية أو في تحديد ماهيته ."

من هنا نلاحظ ظهور هذا الاتجاه النقدي لدى الأطباء المسلمين في هذه المرحلة بعد أن استوعبوا تماما هذه الكتابات وتلك التجارب ، وأنهم لم يصلوا إلى هذه المرحلة من النقد إلا بعد فهمهم لنصوص من سبقهم ، الاعتماد على ملاحظاتهم ومشاهداتهم الدقيقة ، ولا حظنا أيضا أن هذا الاتجاه النقدي الذي سار عليه الأطباء المسلمون في هذه المرحلة لم يكن نقدا لآراء أطباء اليونان فقط ، ولكنه نقداً لما سبقهم من أطباء مسلمين أيضا ، وهذا يؤكد لنا الأمانة العلمية وتحري الدقة اللتين أشرنا إليهما من قبل، كما أن النقد لم يكن نقداً مجرداً لكن اتبعه التعليل المتمثل في تقديم نظريات وأفكار جديدة استفاد منها العلماء والأطباء فيما بعد استفادة عظيمة.

قائمة المصادر والمراجع :

(1) محمد عبد القادر ،ماهر : دراسات وشخصيات في تاريخ الطب العربي ، دار المعرفة الجامعية (الإسكندرية ، 1991م) ص315.

(2) التفنازاني ، أبو الوفاء الغنمي : العلاقة بين الفلسفة والطب عند المسلمين ، مؤتمر الطب الإسلامي الأول (الكويت ، 1981م) ص76.

(3) محمد عبد القادر : المرجع السابق ، ص 316.

(4) الانطاكي ، داود : تذكرة أولى الألباب والجامع للعجب العجاب (دون مكان ، دون تاريخ)ص7.

(5)رفيدة ، إبراهيم عبدالله : مقدمة لدراسة مناهج البحث العلمي ،مجلة الدعوة الإسلامية ، تصدر عن كلية الدعوة الإسلامية طرابلس ، العدد السادس سنة(1989م) ص153.

(6) محمد عبد القادر، ماهر: المنطق ومناهج البحث ، دار المعرفة الجامعية (الإسكندرية ، 1999م) ص166.

(7)روزنتال ، فرانتز : مناهج العلماء المسلمين في البحث العلمي ، ترجمة أنيس فريحة ، دار الثقافة (بيروت ، 1961م) ص133.

(8)الرازى ، فخر الدين : شرح الإشارات لابن سينا (مطبعة القاهرة ، 1325هـ)15/2-17 .

(9) سزكين ، فؤاد : محاضرات في تاريخ العلوم ، لجنة البحوث والتأليف والترجمة جامعة الامام محمد بن سعود (الرياض ، 1979م ص15.

(10)روزنتال : المرجع السابق ، ص92.

(11) المرجع نفسه : ص92.

(12) فخر الدين الرازي : الإشارات ، 38/2,

(13) الجندي انور : مناهج البحث العلمي في الفكر العربي الاسلامي ، مجلة البحث العلمي ، تصدرها جامعة محمد الخامس ، العدد الرابع (الرباط ، 1964م). ص13.

(14) المرجع نفسه ، ص 13.

(15) ابن سينا ، الحسن : الإشارات والتنبهات مع شرح نصر الدين الطوسي ، تحقيق سلمان دنيا ، دار المعارف (مصر ، د،ن) 2/ 38.

(16) المصدر نفسه ، 39/2.

(17) الجندي :المرجع السابق ، ص13.

(18) فرسيس بيكون :

(19) سزكين : المرجع السابق ، 18.

(20) ابن الهيثم ، محمد بن الحسن : كتاب المناظر، المقالات في الإبصار - تحقيق عبد الحميد صبرة ، المجلس الوطني للثقافة (الكويت ، 1983م) ص65.

(21)المصدر نفسه : ص66.

(22) محمد العبد ، عبد اللطيف : أصول الفكر الفلسفي عند أبي بكر الرازي ، مكتبة الانجلو المصرية (1977م) ص152.

(23) حسين ، محمد كامل : طب الرازي ، دراسة تحليلية لكتاب الحاوي ، دار الشرق (القاهرة ، 1977م) ص 139.

(24) المرجع نفسه ، ص140.

(25) قطاية، سلمان : ابن النفيس ، سلسلة أعلام الطب العربي ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر (بيروت ، 1984م)ص 86.

(26) المرجع نفسه ، ص87.

(27) جاك س .رسل : الحضارة العربية ، ترجمة غنيم عبدون (د، و،) ص194.

(28) الطويل ، توفيق : العرب والعلم في عصر الإسلام ، دار النهضة العربية (القاهرة ، 1968م)ص35.

(29) منتصر ، عبد الحليم : أبو ريحان البيروني ،دار المعارف (مصر، 1986م) ص211

(30)المرجع نفسه :ص211.

(31) محمد عبد القادر ، ماهر : فلسفة العلوم ، دار النهضة العربية (بيروت ، 1984م) 2/ 42.

(32) المرجع نفسه ، 43/2.

(33) المرجع نفسه ، 42/2.

(34) هناء فوزي: مناهج الأطباء ، دار سعاد الصباح (الكويت ، 1993)ص156.

(35) بول غليونجي : ،عبد اللطيف لبغدادي (الكويت ، د،ت) ص107.

(36)البغدادي ، عبد اللطيف : الإفادة والاعتبار في الأمور والمشاهدة والحوادث المعنية بأرض مصر (ب،ن ، د،ت) ص61-62. ولقد علق بول غليونجي قائلا، لقد استمر رأى جالينوس في عظمتي الفك زمنا طويلا ، فقد أخذ برأيه" ابن سينا " عند وصفه تشريح عظام الفكين واستمر هنا الرأي سائد حتى بعد عبد الله إلى أن إعادة نقدة فيزاليوس في القرن السادس عشر كأننا عند قراءه وصفه نستمع إلى البغدادي يملي ملاحظاته على تلاميذه ونرى عبد اللطيف البغدادي يفحص ما يزيد على ألفي جمجمة ثم يكلف غيرة بمشاهدتها ثم يتوجه إلى مدافن بوصير لعل العظام هناك تختلف عنها في المقس وكأنه توقع اعتراض معترض بأن الدروز لا تظهر في الجثث الحديثة . . . فرد بهذا مسبقا على طبيب القرن السادس عشر الذي صرح بأن الطبيعة إذا اختلف من أقوال جالينوس فإنها اختلفت لتغير طرأ عليها على مر الزمان .=بول غليونجي : المرجع السابق ، 108.

(37) ابن النفيس ، أبو الحسن : المهذب في الكحل المجرب ، تحقيق محمد ظافر الوقائي ، ومحمد رواس قلعجي -منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة ايسكو (الدار البيضاء ، 1988م) ص86.

(38) المصدر نفسه ، ص92

(39) مصدر نفسه ،ص92-93.

(40)ن النفيس ، أبو الحسن : شرح تشريح القانون - تحقيق سلمان قطاية ، مراجعة بول غليونجي ، الهيئة المصرية العامة لكتاب (القاهرة ، 1988م) ص93.

(41)قطاية :ابن النفيس ، ص58.

(42) المرجع نفسه ، ص58.

(43) المرجع نفسه ، ص57.

(44) قطاية : المرجع السابق ، 58.

(45) نفس المرجع ، ص 59

(46)هناء فوزي : مناهج الأطباء ،ص 159.

(47) ابن رشد ، أبو الوليد : رسائل ابن رشد الطبية -تلخيص المزاج لجالينوس ، تحقيق جورج قنواتي (القاهرة ،د،ت) ص139.

(48) ابن مطران ، أبو نصر أسعد : بستان الأطباء وروضة الأولياء -تحقيق عبد الكريم أبوشويرب -جمعية الدعوة الإسلامية (طرابلس ، 1993م) ص296.

(49) هناء فوزي : المرجع السابق ، ص 161.

(50) ابن زهر ، أبو مروان عبد الملك : كتاب التيسير في المداواة والتدبير -تحقيق مشيل الخوري _ تقديم محي الدين صابر -المطبعة العربية للتربية والثقافة والعلوم _ د، م ، 1983م) ص237.

(51) هناء فوزي : المرجع السابق ، ص 162.

(52) المرجع نفسه ، ص 163.

(53) ابن النفيس : المهذب ، ص440-441,

(54) ابن النفيس : شرح تشريح القانون ص17.

(55) البيطار ،ضياء الدين عبدالله : الجامع لمفردات الادوية والأغذية (بولاق 1864م) ص10.

(56) فمثلا انظر في كتاب الجامع في مادة جندقوقي بولى 40/2 حيث انتقد الرازي وابن سينا والغافقي وابن سمحون وحنين ابن إسحاق ، على أن نقده العلماء موزع في كامل الكتاب .

قائمة المصادر والمراجع :

1) ابـن رشـد ، أبـو الوليـد : رسـائل ابـن رشـد الطبيـة -تلخـيص المـزاج لجـالينوس ، تحقيق جورج قنواتي (القاهرة ،د،ت).

2) ابـن زهـر ، أبـو مـروان عبـد الملـك : كتـاب التيسـير فـي المـداواة والتـدبير - تحقيـق مشـيل الخـوري _ تقـديم محـي الـدين صـابر -المطبعـة العربيـة للتربيـة والثقافـة والعلوم _ د، م ، 1983م)

3) ابـن مطـران ، أبـو نصـر أسـعد : بسـتان الأطبـاء وروضـة الأوليـاء - تحقيـق عبـد الكـريم أبوشويرب -جمعية الدعوة الإسلامية (طرابلس ، 1993م). .

4) ابن سينا ، الحسن : الإشارات والتنبهات مع شرح نصر الدين الطوسي ، تحقيق سلمان دنيا ، دار المعارف (مصر ، د،ن)

5) ابن النفيس ، أبو الحسن :

6) المهذب في الكحل المجرب ، تحقيق محمد ظافر الوقائي ، ومحمد رواس قلعجي - منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة ايسكو (الدار البيضاء ، 1988م).

7) شرح تشريح القانون - تحقيق سلمان قطاية ، مراجعة بول غليونجي ، الهيئة المصرية العامة لكتاب (القاهرة ، 1988م

8) البيطار ،ضياء الدين عبدالله : الجامع لمفردات الادوية والأغذية (بولاق 1864م).

9) ابن الهيثم ، محمد بن الحسن : كتاب المناظر، المقالات في الإبصار - تحقيق عبد الحميد صبرة ، المجلس الوطني للثقافة (الكويت ، 1983م

10) البغدادي ، عبد اللطيف : الإفادة والاعتبار في الأمور والمشاهدة والحوادث المعنية بأرض مصر (ب،ن ، د،ت)

11) الرازي ، فخر الدين : شرح الإشارات لابن سينا (مطبعة القاهرة ، 1325هـ).

12) الانطاكي ، داود : تذكرة أولى الألباب والجامع للعجب العجاب (دون مكان ، دون تاريخ) .

13) بول غليونجي : ،عبد اللطيف لبغدادي (الكويت ، د،ت)

14) التفنـازاني ، أبـو الوفـاء الغنمـي : العلاقـة بـين الفلسـفة والطـب عنـد المسـلمين ، مؤتمر الطب الإسلامي الأول (الكويت ، 1981م).

15) جاك س .رسل : الحضارة العربية ، ترجمة غنيم عبدون (د، و،).

16) الجندي، انور : مناهج البحث العلمي في الفكر العربي الاسلامي ، مجلة البحث العلمي ، تصدرها جامعة محمد الخامس ، العدد الرابع (الرباط ، 1964م).

17) حسين ، محمد كامل : طب الرازي ، دراسة تحليلية لكتاب الحاوي ، دار الشرق (القاهرة ، 1977م).

18) رفيدة ، إبراهيم عبدالله : مقدمة لدراسة مناهج البحث العلمي ، مجلة الدعوة الإسلامية ، تصدر عن كلية الدعوة الإسلامية طرابلس ، العدد السادس سنة(1989م).

19) روزنتال ، فرانتز : مناهج العلماء المسلمين في البحث العلمي ، ترجمة أنيس فريحة ، دار الثقافة (بيروت ، 1961م) .

20) الطويل ، توفيق : العرب والعلم في عصر الإسلام ، دار النهضة العربية (القاهرة ، 1968م)

21) قطاية، سلمان : ابن النفيس ، سلسلة أعلام الطب العربي ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر (بيروت ، 1984م)

22) فؤاد سزكين : محاضرات في تاريخ العلوم ، لجنة البحوث والتأليف والترجمة جامعة الامام محمد بن سعود (الرياض ، 1979م

23) محمد عبد القادر ،ماهر :

- دراسات وشخصيات في تاريخ الطب العربي ، دار المعرفة الجامعية (الإسكندرية ، 1991م) ص315.

- - : فلسفة العلوم ، دار النهضة العربية (بيروت ، 1984م) 2

24) محمد عبد القادر، ماهر: المنطق ومناهج البحث ، دار المعرفة الجامعية (الإسكندرية ، 1999م) .

25) محمد العبد ، عبد اللطيف : أصول الفكر الفلسفي عند أبي بكر الرازي ، مكتبة الانجلو المصرية (1977م).

26) منتصر ، عبد الحليم : أبو ريحان البيروني ،دار المعارف (مصر، 1986م)

27) هناء فوزي: مناهج الأطباء ، دار سعاد الصباح (الكويت ، 1993).